الحياة سياسة: كيف يغير بسطاء الناس الشرق الأوسط؟ *

ترجمة: أحمد زايد

عرض كتاب

سالى عاشور**

مقدمة

يحاول هذا الكتاب أن يرصد واقع مجتمعات الشرق الأوسط المعاصر بالاعتماد على بيانات موثوق بها، وتحليلات منطقية، انطلاقًا من مقدمات نظرية واضحة وأصيلة. ويؤسس الكتاب لفرضية نظرية جديدة فى دراسة الحياة اليومية للمجتمعات وتفاعلات تلك الحياة مع عالم السياسة. ويركز الكتاب على موضوع واحد فحسب من الحياة اليومية للأفراد العاديين وهو صور النضال من أجل العيش ومن أجل التكيف مع معطيات البيئة الحضرية وصور الاستبداد السياسى والهيمنة الاجتماعية والثقافية.

استخدم الكاتب مفهوم اللاحركة non –movement ويشير هذا المفهوم إلى كل صور النضال اليومى التى تتم بشكل فردى ولكن تتحول لسلوك جمعى يتجه لاستهلاك كل ما هو عام، والحضور الفيزيقى الذى يخلق صراعًا بين الأفراد و بين الدولة.

* آصف بيات، الحياة سياسة: كيف يغير بسطاء الناس الشرق الأوسط، ترجمة أحمد زايد، المركز القومى للترجمة، (القاهرة، ٢٠١٤). Asef Bayat, Life as politics: How Ordinary People Change the Middle East? Stanford University Press, 2010.

** مدرس، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

ويمكن القول بأن الرسالة الأساسية للكتاب هى أن المهمشين والضعفاء يصنعون سياساتهم الخاصة، وأنهم فاعلون ناشطون ومناضلون فى الحياة.

يتناول **الفصل الأوّل** مصطلح اللاحركات والذى يرى الكاتب أنه يشير بشكل عام إلى الأفعال الجمعية لفاعلين غير جمعيين دون الانتماء إلى فئة أو إلى طبقة أو إيديولوجيا بعينها؛ هم فقط يقومون بأنشطة وممارسات مشتركة بينهم بدون الانضمام لأية منظمات أو مؤسسات تقوم بنفس تلك الأنشطة والممارسات، وتؤدى أنشطتهم المتشابهة والمتفرقة فى الوقت نفسه إلى إحداث تغير اجتماعى كبير. وطرح الكاتب سؤالا: *لماذا تكون اللاحركات هى الشكل الأكثر انتشارًا للنشاط من سياقات سياسية واجتماعية بعينها فى الشرق الأوسط؟* وقدم سردًا وتحليلا لعدة عوامل للإجابة على هذا السؤال. وأشار إلى أنّه يمكن اعتبار أنشطة الإسلاميين المتطرفين مثالا لتلك اللاحركات، فهى تعبّر عن آمال وأحلام الكثير من فقراء الشرق الأوسط وبخاصة فى المناطق الفقيرة من المدن. ويرى أن هذا دفع الكثير من محللى العلوم السياسية إلى تفسير الحركات الإسلامية فى العالم العربى على أنّها نظائر للحركات الاجتماعية المدنية وأحد الوسائل التى استخدمها البسطاء للمطالبة بحقوقهم.

ويرى الكاتب فى **الفصل الثانى** أنّ الوطن العربى فى العقد الأول من الألفية دخل فى طريق مسدود ونفق اقتصادى مظلم على الرغم العائدات النفطية الوفيرة والقدرات الاقتصادية الهائلة التى يمتلكها؛ وقدم الفصل توصيفًا للحالة الاقتصادية السيئة للأفراد فى الشرق الأوسط والسياسات الاجتماعية والاقتصادية السيئة للأنظمة السياسية التى أدت إلى تزايد عدد الفقراء. وتناول الكتاب ما ورد بتقرير التنمية الإنسانية العربية بمجلداته الأربعة فى ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ و٢٠٠٤ و٢٠٠٥، واستراتيجية التغيير المقترحة لمنطقة الشرق الأوسط الاستثنائية والمقاومة للتغيير.

ويتناول **الفصل الثالث** فكرة *"الزحف الهادئ"* وهى وصفًا لعملية التقدم البطيئة ولكن المثابرة للأفراد العاديين نحو ما هو مملوك من قبل الآخرين وما هو قوى، أى النطاق العام، حيث يرى الكاتب أنّ اقتصاديات العولمة أثرت بشكل كبير فى دول

العالم العربى، وأنّ مظاهر التأثير يمكن ملاحظتها بوضوح فى الهيكلة الاقتصادية لتلك الدول، فقد شهدت موازنات العديد من الدول تقليلاً فى الإنفاق العام على الجوانب الاجتماعية، وتحوّل النظم الاقتصادية من الاشتراكية إلى الرأسمالية، مصحوباً فى كثيرٍ من الأحيان بشروط سياسية. ويؤكد الكاتب على أنّه بالرغم من أن الفقراء كانوا أكثر المتضررين والمناضلين من أجل البقاء، لم يقوموا بالتظاهر أو الاعتراض على الأوضاع القائمة " الفقراء السلبيين". ولم يمثّلوا قوى التغيير فى المنطقة العربية.

يتناول **الفصل الرابع**، سعى الفقراء الحثيث نحو فرص الحياة من حيث الاحتجاجات الجماهرية الحضرية والحركات النقابية والنشاط السياسى للمجتمع المحلى والحركات الإسلاموية والتنمية الاجتماعية من خلال تناول دور الجمعيات الأهلية الإسلامية فى تجذير الرغبة لدى الفقراء لحدوث تغيير فى العالم العربي؛ إذ استطاعت الجمعيات الخيرية الإسلامية من خلال السياسات التى تتبعها أن تجذب الفقراء نحوها بعيدًا عن الدولة المتراجعة اقتصاديًا عن أداء دورها.

يتناول **الفصل الخامس** النسوية فى الحياة اليومية، ويدرس هذا الفصل الوضع الخاص للنساء فى منطقة الشرق الأوسط، والارتباط المباشر لهن بالثورات والتظاهرات التى تحدث فى هذه المنطقة. ويعطى مثالًا بالمرأة والثورة الإسلامية والحركة النسوية بعد الإسلاموية فى إيران. *ويتساءل الكاتب حول ما إذا كان يمكن اعتبار الحركة النسوية فى إيران " لا حركة " أم "حركة اجتماعية" ؟*

الفصل السادس هو محاولة لتحليل الاتجاهات الفكرية والتنظيرية المتعلقة بالحركات الشبابية فى العالم العربى، خاصة وأن هناك قدرًا كبيرًا من التحذيرات والتوقعات حول الوزن السياسى للشباب المسلم فى الشرق الأوسط. والتى عُبر عنها من خلال:

- رغبة الشباب فى الانخراط بوصفهم جنودًا فى حركة الإسلام السياسي، والتى يعتقد البعض توجّهها لخدمة الإسلامية الراديكالية.

- التوجه نحو التحوّل الديمقراطى (كما هو الحال فى إيران والمملكة العربية السعودية).

وتطرق الكاتب إلى الممارسة السياسية للشباب المصرى والذى أسماه *"التجديد التكيفى"* عمليات حشد جماعات الإسلام السياسى المتشددة لفئة الشباب (فى السعودية، ومصر، والمغرب) فى الأعوام الماضية. يثير هذا الفصل بعض التساؤلات مثل:

- ما الذى يمثله الشباب باعتباره قوى سياسية فى الشرق الأوسط الإسلامى؟
- هل تملك الحركات أو اللاحركات الشبابية القدرة على إحداث تحول سياسى ديمقراطى؟
- كيف تسهم النظرية السائدة عن الحركات المجتمعية فى فهم طبيعة السياسات الشبابية فى العالم الإسلامى؟

يتناول **الفصل السابع** "سياسة المرح"، وإشكالية الإبداع الفنى ودوره فى التغيير. ويرى الكاتب أن هناك خوفًا من " المرح" لا يقتصر على الإسلاميين والإسلام ولكنه يمتد إلى معظم الديانات. بل إنه ليس اهتمامًا دينيًا فقط، فحتى العلمانيون سواء من الثوريين أو المحافظين عبروا عن قلقهم وتوجسهم من المرح، واعتبر الكاتب "نزعة معاداة المرح" ليست فقط قضية مذهبية بل قضية تاريخية. ويرى الكاتب أنّ هناك آراء ترى أنّ المرح يهدّد النظام الاجتماعى كلّه، ومن هنا جاءت خطورة التعامل مع الفنّ فى التغيير السياسى فى العالم العربى.

وحاول هذا الفصل الإجابة على بعض التساؤلات مثل:

- هل كانت النزعة الأصولية المعادية للمرح ملمحًا ثابتًا فى التاريخ؟
- ولماذا يصر أنصار النزعة الإسلاموية على الحفاظ على القيم التطهيرية بالرغم من التكلفة السياسية؟ وماذا وراء خوفهم من المرح؟ ولماذا العداء للفن؟

يدرس الكتاب فى **الفصل الثامن** الشوارع فى العالم العربى وكيف أنّ الشوارع والميادين فى العالم العربى " شوارع الغضب" أصبحت مسرحًا للأحداث مثل " ميدان

الانقلاب" فى طهران و" ميدان التحرير" فى القاهرة و" ميدان تقسيم " فى إسطنبول. ويتسأل الكاتب لماذا هذه الأماكن بعينها هى التى تجسد التعبير عن الاحتجاج، وامتداد صور التضامن؟ وما الذى يميز هذه الأماكن عن أماكن أخرى؟

ويناقش هذا الفصل فكرة أن الشارع هو المكان الذى يجمع المعروف والمجهول والمرئى والصوتي. وفيه تتكوّن العواطف والآراء، وتنتشر. وعندما يقع الشارع فى قلب المدينة، يكون ذا أهمية كبرى لقربه من وسائل المواصلات والطرق الرئيسة، ما يشير إلى أهمية الميادين والمناطق الحيوية فى قيادة التغيير.

يناقش **الفصل التاسع**، تأثير السياسات الحكومية على الأفراد ودورها فى تأجيج مشاعر الاضطهاد والشعور بالأقلية، ويشرح الكاتب كيف أنّ هذه السياسات الحكومية لا تأخذ فى الحسبان إقامة نموذج تنموى يستند إلى التوازن الجغرافى، وكيف يمكن أن يؤدّى التهميش الجغرافى والاستبعاد من مخرجات التنمية إلى ما يسمّى بالراديكالية الإسلامية. ويتناول الفصل أيضًا "جدالية التقارب" (بين الفقر والتطرف) والسرديات النظرية التى ترى أن الفقراء الحضريين يتمركزون فى الأحياء العشوائية، وهى الأحياء التى وجد فيها المتشددون الإسلاميون، وحيث يميل الفقراء لطلب العون من الهيئات المحلية التى لا تنتمى للدولة بما فيها المساجد والهيئات الدينية.

يهدف **الفصل العاشر** إلى تجاوز التأكيدات المبسطة حول علاقات الصراع، وذلك من خلال النظر إلى العمليات المتصلة بالسلوك الإنسانى، والتى يتعذر مشاهدتها، وذلك لإماطة اللثام عن الطريقة التى يتبعها الناس الذين ينتمون إلى جماعات ثقافية ودينية مختلفة لتجاوز ذواتهم الآنية من خلال التفاعل فى عوالم حياتهم مع أعضاء تجمعات ثقافية ودينية أخرى. ويتحدى الكاتب الربط بين كثافة الحركات الاجتماعية والتدرّج بمستويات التغيير حتى الوصول إلى الثورة. ويؤكد الكاتب على ضرورة النظر فى أهداف هذه الحركات وأساليبها، وكذلك التحقّق من أنّ نمط التغيير الحادث يمكن وصفه بأنّه ثورة، خاصة فيما يتعلق بالحركات والثورات

الإسلامية. ويناقش الكاتب تضاريس الانقسام الطائفى، وسرديات الصراعات، وجغرافيا التعايش فى مصر، وجدالية الصراع والتعايش.

أمّا **الفصل الحادى عشر**، فيناقش الشارع العربى والفرق بين سياسات الشارع والشارع السياسى، حيث يعتبر الشارع هو المحفّز الفاعل للأفراد العاديين الغائبين عن مؤسسات الدولة القوية، بخاصة العاطلين عن العمل والمهاجرين وربّات البيوت وغيرهم. وأشار الكاتب إلى اهتمّام المراقبين بما أسمته جريدة وول ستريت بـ"الشارع العربى غير الرشيد". وما أبداه الساسة الأمريكيون من تخوف من قيام الجماهير الغاضبة " الغضب العربي" بمهاجمة سفارات ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى حال قيامها بمهاجمة أى بلد إسلامى. ومن هنا جاء الربط بين مفهوم الشارع العربى و"العقل العربى"، وهو ذلك المفهوم الذى يختزل الثقافة والسلوك الجمعى لجل السكان فى تجريد عنيف. ويرى الكاتب أنه قبل ذلك لم يمثّل الشارع الرأى العام العربى؛ إذ ارتبط بردة الفعل العنيفة فقط. ويؤكد الكاتب على أن سياسة الشارع بصورة عامة وسياسة الشارع العربى بصورة خاصة، أمر شديد التعقيد، فالشارع فى هذه الحالة ليس مجرد إطار فيزيقى فقط ولا قوة غافلة أو كيان ميت ولا تعبير عن سياسية الشارع بشكل عام ولكنه تعبير عما أسماه الكاتب "الشارع السياسى".

ويتساءل **الفصل الثانى عشر**: *هل هناك مستقبل للثورات الإسلامية؟* ويحاول الفصل أن يوضح أن هذا العصر يمكن أن يكون عصر الحركات الدينية الإسلامية، وعصر التحولات الاجتماعية الملحوظة، لكن هذه الحركات وتلك التحولات لا يجب بالضرورة أن تترجم إلى ثورات (سريعة وعنيفة، وذات أصول طبقية، وواسعة الانتشار). ويناقش الكاتب عدة موضوعات مثل الحداثة والثورات، والحداثة الشرق أوسطية والثورات. وأنواع التمرد الإسلامى فى زمن الحداثة، ومكانة الإسلام فى الظروف النضالية.

أمّا **الفصل الثالث عشر**، فيرى الكاتب فيه أن الجدل حول الفشل الديمقراطى فى الشرق الأوسط ليس جديدًا، ولكن الجديد هو الاهتمام الكبير بالإسلام كعامل يُقال

عنه دائما إنه يعطل الإصلاح الديمقراطى. وينظر للإسلام على أنه "عالم لا تحتل فيه الحياة الإنسانية القيمة نفسها التى تحتلها فى الغرب، فيما يتصل بالحرية والديمقراطية والانفتاح والإبداع، حيث تحتل كل هذه المفهومات مكانة هامشية". ويرى الكاتب أن الحركات الاجتماعية المتعددة الوجوه ليست تعبيرًا يظهر لمرة واحدة ويختفى تحت أى فعل من أفعال القهر، وأنه فعل وتغير ذو نفس طويل، يتكون من الداخل من خلال عمليات جانبية كثيرة.

يتناول **الفصل الرابع عشر** الثورات العربية والانتفاضات الشعبية التى انتشرت فى الشرق الأوسط من المغرب إلى سوريا، ومن إيران إلى الممالك فى الخليج العربى، والأساس الذى قامت عليه تلك الانتفاضات والتفسيرات التى أظهرت هذه الانتفاضات على أنها " ثورات شبابية" تارة وعلى أنها "ثورات شعبية" أقرب لثورات ما بعد الحداثة تارة أخرى من حيث اتصافها بالانتشار وعدم وجود قائد له أيديولوجيات محددة. ويرى الكاتب أن الثورات المعاصرة فى الشرق الأوسط تكشف عن توجه "بعد إسلاموى" فمعظم تلك الثورات غابت فيها اللغة الدينية ورفضت إقامة الدولة الإسلامية بالرغم من أن من ضمن المشاركين فيها ذوو عقيدة دينية راسخة. فالناس يملكون العقيدة بالفعل، ولكنهم يتعطشون للحرية. ويتناول الفصل أيضًا فكرة "الثورات الدوارة (الجوالة)، حيث لعبت وسائل الاتصال الاجتماعى الجديدة دورًا حيويًا فى الانتفاضات التى وصفت على أنها "ثورات الفيس بوك"، ويرى الكاتب أن الثورات لا تظهر فى العالم الافتراضى، وإنما تحدث فى العالم الواقعى وداخل فضاءات واقعية وأن الثورات تمتلك بعض الجوانب المكانية، إذا غضضنا الطرف عن عنصرى الفعل والحدوث الوقتى. ويختتم الكاتب هذا الفصل بمحاولة للإجابة على تساؤل حول ما إذا كانت الثورات العربية تتمتع بقدر كاف من "الثورية" للقضاء على مخاطر العودة للوراء. وقد افترض أن مسيرة التغير، على الأقل فى مصر، وتونس واليمن هى "ثورية إصلاحية" أى خلط ما بين الثورة والإصلاح.